الباب الأول
ما قبل الثورة

الفصل الأول
النشأة والتربية

□□□

الفصل الثاني
الحياه العسكرية

□□□

الفصل الثالث
وقفات فكرية

□□□

الفصل الرابع
ما قبل الثورة

الفصل الأول
النشأة والتربية

يوسف منصور يوسف صديق الأزهرى (٣ يناير١٩١٠- ٣١ مارس ١٩٧٥) ولد فى قرية زاوية المصلوب التابعة لمركز الواسطى محافظة بنى سويف، والده وجده عملا ضابطين بالجيش المصرى. والده هو اليوزباشى منصور صديق شارك بحرب استرداد السودان وقضى خدمته بالسودان وتُوفى سنة ١٩١١م. وجده يوسف صديق الأزهرى كان من القضاة المعارضين فى عهد الخديو توفيق وعندما رفض اعطاء الملك فتوى أنه من أنساب النبى (صلى الله عليه وسلم) عينه الخديو على سبيل العقاب كحاكم لإقليم كردفان بالسودان أثناء الثورة المهدية حيث القتل والتشريد وبالفعل قتل خلالها وكل أسرته ولم ينجُ سوى ولديه محمود ومنصور، حيث هربهما الخادم معه كأنهما من أبنائه وساعده فى ذلك لون بشرتهما الأسمر وللأسف تُوفى محمود بالقاهرة بينما واصل منصور المسير حتى استقر بقريته زاوية المصلوب والأخير هو أبو البطل يوسف صديق جاء ليستقر فى قرية المصلوب،

ثم التحق بالجيش بعد ذلك ليكمل مسيرة والده وبالفعل تم نقل للخدمة بالسودان بعد تخرجه وازداد كرهه وعداؤه للإنجليز بعدما رآى من معاملتهم السيئة للضباط والجنود المصريين وبالتالى كان مصيره مصير أبيه وتم نقله من مكان سيئ إلى أسوأ، حتى أصيب بالكبد وكثرت عليه الأمراض وتوفى عام ١٩١١م فى سن صغيرة لم تتجاوز الثامنة والعشرين بعدما أنجب طفله الوحيد «يوسف صديق» الذى تركه وعمره عام واحد فقط.

هذه هى عائلة يوسف صديق من أبيه «عائلة الأزهرى» وقد كانت هذه العائلة فى ذلك الوقت تهتم بالعلم والثقافة أكثر من اهتمامها بالأرض والزراعة وجمع المال وكان الكثير من أفراد هذه الأسرة ينتمون للأزهر الشريف يدرسون به ويتخرجون ليعملوا فى وظائفه ومجالاته المختلفة، ولذا يرجح أن هذا هو سبب تسميتهم بعائلة الأزهرى.

أما والدته فهى السيدة سكينة بنت الحاج أحمد على من عائلة «على» وكان أحد أثرياء بنى سويف حيث امتلك الكثير من الأراضى الزراعية كعادة عائلته فى ذلك الوقت التى اهتمت بالزراعة وزيادة ممتلكاتها الزراعية وجمع الأموال لتكوين الثروات..

وهكذا تربى يوسف صديق بين عائلتين يستحوذان على العلم والمال! وما أدراك إذا اجتمع العلم والمال! فعلى الأقل تتولد منهما شخصية كريمة مثقفة متفتحة قوية شجاعة لا تهاب أحدًا وتتبع الحق أينما كان وهذا كان حال البطل «يوسف صديق»..

أيضاً حباه الله بجسد قوى وملامح صلبة لتحمل طبيعة الحياة التى عاشها، ومن اللطائف التى تحكيها زوجته «علية توفيق» أنه من قوة بأسه حتى أثناء طفولته كان يهزم كل أصدقائه وأولاد عمه فى مسابقة الجرى التى يقيمها الأطفال وأنه فى إحدى المرات تحداهم أن يسبقهم جميعا وهو يحمل على كتفه الطفلة «علية توفيق» ويشاء الله أن يتكرر الموقف مرة أخرى فى الكبر ليحملها كزوجة بقية حياته..

أتم «يوسف‌صديق» دراسته الأولية بمدرسة الواسطى الابتدائية سنة ١٩٢٤م ثم ذهب إلى القاهرة ليلتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية وهناك تأثر وهو فى سن صغيرة بخطب سعد زغلول وثوريته. بل إنه ذهب فى إحدى الليالى إلى بيت الأمة ليستمع لسعد زغلول مباشرة ليرضى ثوريته العارمة ولكن هذا طبعا أغضب ولى أمره الذى كان يعيش معه وهو من أحد أقاربه القاطنين بالقاهرة. ولكنه عاد إلى بنى سويف مرة أخرى ليكمل دراسته

الثانوية بها تاركا صخب القاهرة وقيـود ولـى أمره التى فرضهـا الخوف عليه. وبعد عودته للقرية كان الإشراف لجده ولوالدته ثم خاله (الشاعر محمد توفيق) – صاحب ديوان «التوفيق» الذى طبعته الهيئة العامة للكتاب بعد وفاته بحوالى ستين عاما – وهو الذى أثرى حياة يوسف بالأدب والفكر والثقافة فقد كان ضابطاً شاعراً يمتلك فيلا ساحرة على ضفاف النيل تلهمه فنون الشعر والأدب وقد انتقلت هذه الثقافة سريعا إلى الشاب الواعى المثقف «يوسف صديق» من خلال هذا الخال وفى بيت هذا الخال أيضا التقى بابنة خاله وزوجته فيما بعد السيدة «علية توفيق».

ثم التحق يوسف بالكلية الحربية على الرغم من رفض أسرته لهذا فقد ذاقت من ويلات العسكرية ما ذاقت لذا كانوا يأملون أن يحافظوا على نجلهم من مهالك الإنجليز لكنه أصرّ ولم يستطع أحد أن يثنيه عن تكملة مشوار أبيه وجده وتخرج فيها عام ١٩٣٣م ومن المواقف الشجاعة التى تذكر له فى السنة الأولى الدراسية أنه رفض دفع المصاريف لأن والده كان ضابطاً بهذا الجيش عاش له ومات بسببه وعندما حققوا معه لرفضه دفع المصاريف قال له أحدهم إن أمك الحاجة سكينة ثرية وقادرة على دفع المصاريف بسهولة، لكنه رد بجواب أسكت الجميع، حيث قال لهم:

«إن أبى اليوزباشى «منصور صديق» هو من خدم بالجيش المصرى ومات فيه ولم تكن أمى «سكينة أحمد على» هى التى فعلت ذلك».

هنا سكت الجميع وأقروا بأن لكل طالب كان أبوه ملتحقاً بالجيش المصرى حق عدم دفع المصروفات وفاءً له..

❑❑❑

الفصل الثاني
الحياه العسكرية

شارك يوسف صديق فى حرب فلسطين ١٩٤٨م وقاد كتيبته بجرأة نادرة واستطاع أن يحتل نقطة مراقبة على خط الدفاع بين المجدل وأشدود. وكان الضباط يطلقون على المنطقة التى دخلها «زلومة يوسف صديق» وكان يخطط لهجوم عنيف بكتيبته على المستعمرات اليهودية لولا قرار الانسحاب. وقد ابتكر بأشدود نظام دفاع جديدة سماه «جزر المقاومة» أثبت نجاحه وبدأ الجيش فى إرسال الجنود ليدربهم يوسف صديق على هذا الدفاع الجديد الجيد وعلى الرغم من إشادتهم ببراعة يوسف صديق وشجاعته فإنه فوجئ أنهم تخطوه فى الترقية ولم يعيروه أى اهتمام عسكرى. فأرسل قصيدة إلى وزير الحربية متظلما يقول فيها:

قل للوزير وقد تبين حقنا ... وولاؤنا ما بالنا ينسانا
إنا لنطلب حقنا لا نبتغى ... من فضله جوداً ولا إحساناً

أيضا أثناء تعسكره بأشدود حيث المناظر الطبيعية الخلابة والبساتين الرائعة طغت الطبيعة الشاعرية على الحياة العسكرية

فتغنى بكلمات موزونة على بحر الجمال مختومة بقوافى دوى القنابل المستمر منها هذه الأبيات التى قال فيها:

يا جنة فى رُبى «أشدود» وارفة تموج بالسحر أشكالاً وألوانا
أعدها المبدع البارى وزينها للصابرين على الأيام رضوانا

خلافاته داخل الجيش

كان ليوسف صديق مناوشات وخلافات كثيرة فى الجيش المصرى فى العهد الملكى خصوصاً مع باشاوات الجيش الذين عثوا فسادا وهذا عرضه للتأخر فى الترقية واضطهاد ممن هم أعلى منه فى الرتبة العسكرية وهذا يظهر فى أحد مواقفه مع أحد لواءات الجيش الذى سب كتيبته أثناء تدريب يؤدونه فى الصحراء وانتظر يوسف صديق حتى انتهى ضرب النار ليثبت نجاحه للجميع ثم ذهب للواء وأخبره اعتراضه وطلب منه الاعتذار وفوجئ بباقى ضباط الكتيبة على باب مكتب اللواء يعتصمون ويندون بما حدث وعندما لم يستطع اللواء صرفهم استغاث بيوسف صديق ليصرفهم ويعدهم بالاحترام ولكن كان الاضطهاد والتهميش هو رد الجميل ورفعت فيه مذكرة تدينه بذلك لكن ظهر الحق فى التحقيقات وأنصفه القانون وأخذ حقه

وقدم التظلمات ليحصل على ترقياته كاملة مثله مثل أقرانه. وقد سجل الشاعر الرقيق الظلم الذى تعرض له فى بعض الأبيات الشعرية كهذه عندما تخطوه فى الترقية وهو فى حرب فلسطين:

أمنت ظهرى بالحبيب من العدا فأصابنى فيه الحبيب تعمدا
ورميت بالسهمين سهم شاهد فى الصدر أنى ما تهيبت الردى
شهدت لىَ الأعداء عدلاً يا ترى سهم الأحبة ما عسى أن يشهدا

الكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاة

أيضا مما تحكيه زوجته علية توفيق: أثناء خدمته بالجيش المصرى قصة تثبت دوره الفعال داخل الجيش فتقول: نقل يوسف صديق مع الأورطة إلى الدخيلة بالإسكندرية ثم نقل معها إلى مرسى مطروح وهناك كلف يوسف بعمل عسكرى مهم جداً برغم حداثة خبرته ومدته ورتبته العسكرية، فقد كلف بتحويل هذه الأورطة المشاة إلى مدافع ماكينة وفعلا قام يوسف صديق بهذا العمل العسكرى المهم خلال ثلاثين يوما حتى أن القائد الإنجليزى الذى كان يتابع عملية التحويل عبّر عن إعجابه بهذا المستوى من الأداء بقوله «إن من يرى هذه الكتيبة لا يصدق أنها منذ شهر واحد فقط كانت كتيبة مشاة» وأطلق على هذه الأورطة بعد

تحويلها إلى مدافع ماكينة «الكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاة» لأنها كانت أول كتيبة مدافع ماكينة مشاة بالجيش. ومما يجدر ذكره أن هذه الكتيبة هى نفس الكتيبة التى قاد يوسف صديق مقدمتها ليلة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م واحتل بها رئاسة الجيش فى كوبرى القبة وقبض على رئيس أركان حرب الجيش ومن كان مجتمعاً بهم لإجهاض الثورة وأنقذ الثورة من فشل محقق كما أنقذ الضباط الأحرار من الإعدام رمياً بالرصاص.

ومما يجدر ذكره أيضاً أن يوسف صديق خلال هذه التدريبات وتحويله للأورطة إلى كتيبة مدافع ماكينة مشاة أصيب بشرخ فى العمود الفقرى ظل طوال عمره يعانى منه وألبس بسببه جاكت من الجبس كان يسميه السجن المفصل، وعلى الرغم من ذلك أكمل مهامه العسكرية على أكمل وجه دون تقصير أو تكاسل، بل اجتهد وتفانى فى العمل العسكرى ليشهد له القاصى والدانى والعربى والأجنبى.

مدرسا للتاريخ العسكرى

أيضاً عمل يوسف صديق كمدرس للتاريخ العسكرى بالكلية الحربية من عام ١٩٣٩م إلى عام ١٩٤١م حول فيها مادة التاريخ

العسكرى بأسلوبه الشيق المثير فى السرد من مادة مملة ثقيلة على الطلبة إلى مادة شيقة ينتظرها كل الطلبة بشغف وحب للاستزادة والمعرفة وكان من تلاميذه بعض قادة الثورة كخالد محيى الدين وحسن الدسوقى..

التحق بعد ذلك يوسف صديق بكلية الأركان حرب سنة ١٩٤٢م وهى السنة التى اشتدت فيها آلام العمود الفقرى عليه وألبس فيها الجاكت الجبس أو السجن التفصيل..

وهنا يسرنى أن ألقى الضوء على هذه الجملة التى قالها يوسف صديق فى بحثه الذى سيأخذ عليه التقدير فى نهاية الدراسة. وهذه الجملة هى «وما زال الجيش المصرى ينتظر القائد المصرى النقى» ولقى جزاء كلمة الحق عدم حصوله على الدرجات التى يستحقها وعدم تعيينه فى أى منصب حساس بعد حصوله على شهادة الأركان حرب.

من المواقف الثورية له قبل الثورة مؤازرته هو ورفاقه الشجعان للأميرالاى عبد الواحد سبل الذى رفض التواطؤ مع الفاسدين ورفض الرشوة ووقف فى وجه الظلم والفساد المنتشر فى الجيش

وقتها وكان مصيره الحرمان من الترقية بل وطرده من الجيش وهنا ظهر الأبطال وأقاموا له حفل تكريم بنادى الجيش ودعوا له الكثير من الضباط ومثل الحفل احتجاجا شديدا على قرار طرده من الجيش بل اعتبره البعض أولى بذور الثورة وهنا ظهرت شاعرية البطل الحماسى الذى أطرب أذن السامعين وهيج عاطفتهم بقصيدة «يا صاحب القلب الكبير» مدعما موقف رئيسه ومعزياً له ومنها هذه الأبيات الرائعة:

هون عليك أخى فإن جهادنا ... فى الله لا نرجوا الحياة متاعا
إنا وهبنا للجهاد نفوسنا ... لا نبتغى رتباً ولا أطماعا
والمؤمنون المخلصون يزيدهم ... ظلم الحوادث شدة وصراعا
يا صاحب القلب الكبير تحية ... فلقد بدأت ولا أقول وداعا
حُررت من قيد الوظيفة فانطلق ... حراً وأطلق للكفاح شراعا
عار الوظيفة أن نضام بها إذا ... كنا الرجال ولم نكن أتباعا
ونفوس أهل الحق تأبى حرةً ... وكريمةً أن تشترى وتباعا

وكالعادة كانت هذه القصيدة هى وسيلة المواصلات التى نقلته سريعاً كعقاب إلى الإسماعيلية حيث كان وباء الكوليرا منتشرا.

هكذا يتضح لنا مما سبق ذكره ثورية يوسف صديق منذ

صغره واستعداده النفسى للثورة على أى شىء خاطئ والتبكير بكل شجاعة وبسالة فى الوقوف بجانب الحق أياً كان وهذا ما سنلحظه فى الأحداث القادمة..

□□□

الفصل الثالث
وقفات فكرية

يوسف صديق وحزب الوفد

بعد أن انتقل يوسف صديق إلى القاهرة كان من الطبيعى أن يتلاقى مع التيارات السياسية المختلفة وبالطبع كانت بغيته أول ما اتجه إلى حلم طفولته إلى البيت الذى ذهب إليه كثيرا متظاهرا ثائرا يناصر الحق ويدفع الظلم إلى بيت الأمة حيث الزعيم والقائد سعد زغلول الذى كثيرا ما تمنى رؤيته واتباعه فى مسيراته وأفكاره الثورية المناهضة للاستعمار لكنه لم يجد هذا بعينه فما لبث أن ترك حزب الوفد سريعا فقد وجد من وجهة نظره أن حزب الوفد بوجود سعد زغلول يختلف كثيرا عن حزب الوفد الحالى بدون سعد زغلول لذا لم يكمل المسيرة مع حزب الوفد وغير دفته سريعا ليتجه إلى تيار آخر قد يتلاقى معه فكريا ويلبى طموحه الثورى العارم ونتيجة لتربيته المحافظة وتدينه الريفى الأصيل، فقد اتجه صوب تيار الإسلام السياسى واختار أن يجرب التيار الوسطى حيث «الإخوان المسلمون»..

يوسف صديق والإخوان المسلمون

وكما يحكى يوسف صديق فقد مر على الإخوان مرورا سريعا عن طريق الضابط «لبيب» المسئول عن ضباط الإخوان المسلمين ولم يمكث بها كثيرا ولم يلتق فكريا معهم فهو لم يختلف كثيراً عن أهداف الإسلام السامية لكنه اختلف فى طريقة التطبيق فهو مثلا عندما اختلف معهم – من وجهة نظره – لم يكن على أهلية القرآن ليكون دستورا للأمة أم لا. بل هو أراد تحويل هذا المبدأ إلى دستور مكتوب فعليا ومحدد على الطريقة الحديثة حيث إنه كان مقتنعا بأن الإسلام عموما والقرآن خاصة صالح لكل زمان ومكان وعلى الرغم من عدم التقائه الفكرى مع الإخوان فإنه ظل يكن لهم كل معانى الحب والود والاحترام وهذا ظاهر فى عدة مواقف:

أولهـــا: علاقتـــه مع أحد المؤسسين لحركة الضباط الأحرار والمنتمى للإخوان المسلمين وهو عبدالمنعم عبدالرءوف وقد ذكره البطل يوسف صديق فى مذكراته بكل الخير بل مدح فيه وفى كرم أخلاقه وحسن شخصيته ومما ذكره معه. موقف عبد المنعم عبدالرءوف فى بيت يوسف صديق بمجرد دخوله البيت يحضر له سجادة الصلاة ويظل عبدالمنعم منتصباً للصلاة تاركا المناقشات

حتى انتهاء الاجتماع ولمّا سأله عن ذلك قال إنه «أى عبدالمنعم عبدالرؤف» بدأ يشعر أن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بدءا يتحركا بشكل فردى وهذا ما وافقه عليه يوسف صديق ولكن طلب منه استكمال مسيرة العطاء دون النظر الى الأشخاص وإعلاء مصلحة الوطن وهذه هى شيم هذين الفارسين ولكن كما قال المؤرخون فهذه الثورة قام بها أناس واستفاد منها آخرون!

وثانيهـا: فـى علاقـة يوسف صديق بالإخوان هو اقتراحاته المستمره فى الصحف والجرائد وخطابه للرئيس الراحل محمد نجيب فى أزمة مارس ١٩٥٤م والذى اقترح فيه رجوع البرلمان المنحل وتوليه الشرعية والمسئولية أو تشكيل حكومة ائتلافية تضم كل أطياف المجتمع وكان ممن اقترح مشاركتهم فى هذه الحكومة جماعة الإخوان المسلمين مع الشيوعيين والوفد وهنا تتجلى عقلية هذا البطل الفكرية الناضجة المتفتحة التى تقبل الجميع دون إقصاء وتتعاون فيما تتفق عليه وتعذر الآخرين فيما اختلفت فيه معهم وما أحوجنا إلى هذا الفكر اليوم.

وثالثها: هو مشاركة الإخوان المسلمين معه فى لجنة الكفاح المسلح ضد الانجليز وإن كانت لفترة قصيرة تحكيها لنا زوجته «علية توفيق» وتقول:

«فى حوالى شهر سبتمبر ١٩٥٢م كان يوسف مدعوا للغداء بمنزل الصاغ صلاح عبد الحفيظ وهو بلدياتنا من بنى‌سويف وكان موجودا الصاغ حسن الدسوقى وتصادف وجود السيد عبدالحفيظ الصيفى الذى كان عضوا بارزا بالإخوان المسلمين ودار الحديث حول الكفاح المسلح فأبدى عبد الحفيظ الصيفى تأييده للفكرة واقتناعه بها ووعده بعرضها على المرشد العام للجماعة. وبعد ذلك بأيام تم لقاء بين يوسف ونفس المجموعة والمرشد العام للإخوان حيث أبدى المرشد العام موافقته على التعاون مع كافة الأحزاب السياسية بمن فيهم الشيوعيون للكفاح المسلح ضد الإنجليز وأبلغ عبدالحفيظ الصيفى الصاغ صلاح عبد الحفيظ بأن المرشد العام قد فوض كلًا من حسن عشماوى وصالح أبو رقيق وصلاح شادى ومنيرالدلة وعبد الحفيظ الصيفى فى التنسيق مع مجموعة يوسف صديق والأحزاب السياسية الأخرى حول فكرة الكفاح المسلح ضد الإنجليز وتم لقاء بينهم وبين يوسف صديق وفى تلك الجلسة أبلغوا يوسف بأن جمال عبدالناصر اتصل بهم وأبلغهم بأنه يرحب بالتعاون معهم فى مجلس القيادة لكن هناك معارضة من يوسف صديق وخالد محيى الدين وقد نفى يوسف صديق فى تلك الجلسة ما ادعاه عبد الناصر.

وفى اليوم التالى توجه عشماوى وصلاح شادى إلى جمال عبد الناصر وأبلغاه بما دار بينهم وبين يوسف صديق خاصة تكذيب يوسف لما ادعاه عبد الناصر ضده وضد خالد محيى الدين.

وفى شهر يناير ١٩٥٣ كان طلاب الجامعة يحتفلون بذكرى شهداء الكفاح المسلح بالقناة وكانت قد تكونت لجنة من الطلبة تضم الشيوعيين والإخوان والوفديين وأعلن فى هذا الاحتفال تكوين جبهة من القوى الثلاث.

لكن عناصر تنتمى للسلطة حاولت فض المؤتمر بالقوة فتصدى لهم الطلبة وأرغموهم على الفرار. وفى مساء نفس اليوم حضر عبد الحكيم عامر إلى منزلنا بسكنات الجيش ونسب إلى يوسف صديق تدبيره أحداث الجامعة، فأنكر يوسف ذلك واتهمهم باستفزاز الطلبة والاعتداء عليهم.

وفى اليوم التالى لإيداع مجموعة من ضباط سلاح المدفعية فى سجن الأجانب ومعهم بعض ضباط يوسف صديق اجتمع مجلس القيادة فهاجم يوسف صديق إجراء القبض على الضباط وأكد تأييده لما ينادون به ووصف مجلس القيادة بعدم الشرعية فهو مجلس غير منتخب لا من الشعب ولا من الجيش وقدم استقالته من المجلس مما نتج عنه توقف أعمال لجنة الكفاح المسلح ضد الإنجليز.

والملمح الأخير فى علاقة يوسف صديق مع الإخوان هو تعاطفه معهم فى المعتقل فقد كان هو أحد المسموح لهم بسماع الأخبار فكان يقوم بعمل نشرة دورية ينسخها على يده عدة مرات ثم يوزعها على العنابر ليربطهم بأخبار العالم الخارجى. وفى هذه الفترة تحكى ابنته «سهير» أنه بمجرد دخوله المعتقل وجد الأميرالاى أحمد شوقى وعددًا كبيرًا من ضباط الإخوان المسلمين ومنهم عبدالمنعم عبدالرءوف ومعروف الحضرى وأبو المكارم عبدالحى وغيرهم وقد ظل والدى سنة وشهرًا فى السجن الحربى وفى هذه الفترة عاصر التعذيب الشديد الذى وقع على قيادات الإخوان المسلمين وأعضاء جماعتهم وكنت أزوره كل أسبوع فيقص علينا ما يحدث من أبشع أنواع التنكيل ما فاق كل تصور وما لا يتصوره عقل وفى إحدى هذه الزيارات لوالدى بالسجن الحربى بعد أن اعترف أعضاء الجهاز السرى بأسماء زملائهم وبالتنظيم كاملا وتم القبض على جميع الأعضاء وكان الناس يلومون القيادة لهذا الاعتراف قال أبى إنه رأى بنفسه العذاب الشديد الذى وقع على هؤلاء القادة من الجلد الذى كان يتطاير فيه لحمهم إلى إطلاق الكلاب التى تنهشهم إلى سحلهم بالخيل ولم ينطقوا بحرف واحد ولم يعترفوا إلى أن جاءوا بزوجة

هنداوى دوير وكان شابا صغيرا وكانت زوجته فى بلدتها لتضع مولودها فأتوا بها إلى السجن الحربى وخلعوا ملابسها أمامه ووضعوها على العروسة إحدى ألات التعذيب وقالو له إنهم سيفعلون معها ما فعلوه به. فطلب منهم أن يرجعوها إلى بلدتها وقام بالاعتراف الكامل لهم على النحو المعروف بعد ذلك وفى آخر كل زيارة لأبى فى السجن كان يعطينا كيسا كبيرا به عدد كبير من الخطابات التى كتبها المعتقلون لذويهم لكى أرسلها عن طريق البريد لكى يعرفوا مكانهم.

أيضا يحكى الأستاذ محمد توفيق الأزهرى فى كتابه «يوسف صديق منقذ ثورة يوليو» عن الفترة التى قضاها يوسف صديق فى معتقله وما عاصره من حوادث تعذيب الإخوان المسلمين فى المعتقل حيث يقول: ما هو نصه: والحادثة التى لا أنساها كانت عند تعذيب يوسف طلعت فقد كان الرجل يضرب بالسياط حتى يفقد الوعى وقد شاهدت بنفسى لحم الرجل يتطاير من شدة الضرب وقد جلس وكيل النيابة فى المكتب بالقرب من مكان التعذيب للتحقيق مع الرجل.. كانت الرحمة قد نزعت من القلوب وتحول الزبانية إلى وحوش آدمية لا يعرفون الله وقد تعرض لمثل هذا التعذيب عبد القادر عودة وفتحى البوز الذى

سمعته بنفسى يقول للجلاد عندما اشتد عليه الضرب: علشان خاطر ربنا فيرد عليه الجلاد: «خلى ربنا ينزل يخلصك» وهنا أردت الوقوف على هذا الجانب المظلم من التعذيب والتنكيل لأبين مدى الظلم والجور الذى وقع على كل الحركات المعارضة للديكتاتورية من مجلس قيادة الثورة بعد رحيل يوسف صديق وخالد محيى الدين عنه.

ولأبين أن هذا الذى حدث داخل سجون ومعتقلات الديكتاتورية هو أحد أسباب - إن لم يكن السبب الرئيسى - صنع الإرهاب والتطرف الفكرى وظهور المكفرين والفرق والجماعات التى ظهرت حينذاك والتى أضرت بعنفها الإسلام والمسلمين..

يوسف صديق والشيوعية

ما فهمته من مذكرات يوسف صديق وخطاب الأستاذ محمود توفيق فى كتاب «أوراق يوسف صديق» أنه قد التحق بالشيوعية فكرا فقط ولم يلتحق بها تنظيما على الرغم من مناداة بعض أصدقائه له على سبيل الدعابة بـ (يوسف ستالين) ومن هذه الحركات التى كان له صلة بها الحركة الشيوعية «حدتو»، وذلك عن طريق أحد أصدقائه وهو إبراهيم عبد الحليم زميل العمل

وأخو الشاب الثائر كمال عبدالحليم الذى اختبأ لفترة محدودة فى بيت يوسف صديق بعيدا عن أنظار البوليس السياسى على الرغم من رصد مكافأة مالية لمن يبلغ عن مكانه لكن كان مآواه الوحيد هو بيت صديق أخيه وهكذا زادت معرفة يوسف صديق ببعض قيادات «حدتو» التى كثيرا ما ساعدت الضباط الأحرار وطبعت المنشورات لهم ووقفت معهم حتى قيام الثورة لكنها هى الأخرى لم تسلم من أذى الديكتاتورية وعلى الرغم من اقترابه من الشيوعية فإنه كان له مأخذان مهمان عليها:

أولهما: بُعد الشيوعية عن الأديان وعدم احترامها للأديان وإظهار صورة الإلحاد هى الصورة المثلى بل والتطاول فى بعض الاحيان (كما ذكر يوسف صديق) على المصلين والسخرية من المؤدين لعبادتهم والإفطار جهراً فى رمضان والتفاخر بالإلحاد..

وهنا لا يفوتنا أن نذكر إعجاب يوسف صديق بالاشتراكية واعتبارها حلًا جذريًا لكثير من المشاكل وإعجابه بمبادئ ماركس الاشتراكية ومساهمته فى تطوير المجتمعات مع تحفظه الشديد على فكرة الإلحاد وقد قال «إنه إذا جنبنا قضية الإلحاد فنستطيع أن نقول بأن كل ماتحويه الاشتراكية يطابق الإسلام».

أما المأخذ الثانى فهو الانقسام الشديد والتفرق داخل الحركات الشيوعية بل داخل الحركة الواحدة وهو ما رآه يوسف صديق مرضًا خطيرًا فى كيان الفكر الواحد وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر يوسف صديق فى أحد الحوارات الصحفية أنه ليس شيوعيا. ومما قاله لهم عند قراءة أحد منشوراتهم - كما جاء فى كتاب علية توفيق «يوسف صديق وجمال عبد الناصر وأنا»: «ستظلون تشتمون وتهاجمون بعضكم إلى أن يحضر البوليس السياسى ويقبض عليكم جميعا دون أن تكونوا قد حققتم أى نتائج عملية تساعد البلد على الخلاص مما هو فيه» وهنا قد فقد يوسف صديق الثقة فى التنظيم الشيوعى. ولإيمانه بأنه قادر على فعل شىء محقق للأمة يستطيع أن ينقذها مما هى فيه، فقد غير وجهته تاركاً شط الشيوعية وموانيها ليرسو بسفينته الفكرية على آخر المراسى له ألا وهو تنظيم الضباط الأحرار وقبل أن أنتقل إلى تاريخ يوسف صديق مع الضباط الأحرار أود أن أختم هذه الفقرة الخاصة بميول البطل يوسف صديق الفكرية وانتماءاته السياسية بسؤال صحفى جريدة المصرى الذى أجرى حواراً مع يوسف صديق وسأله متعجبا هل أنت من الإخوان؟ أم شيوعى؟ أم وفدى؟ أم اشتراكى؟ أم أنت هؤلاء جميعا؟! وإجابتى الشخصية هى أنه فعلاً هؤلاء جميعا..

يوسف صديق والضباط الأحرار

بعد فقد الثقة فى الحركات الشيوعية ظل أمل يوسف صديق فى الجيش وحده فهو الجهة التى تملك العدة والسلاح الذى يمكنه من تغيير الأوضاع إن أراد ذلك. وهذا الرأى ظهر جلياً فى قصائده المحرضة على حمل السلاح والعمل وترك المعارضة الكلامية فقط.

ولم يكن يوسف صديق من مؤسسى حركة الضباط الأحرار ولكنه التحق بها عن طريق صديقه الضابط وحيد رمضان أحد الضباط الأحرار وكان ذلك سنة ١٩٥١ أثناء خدمته فى العريش بالكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاة وأخذ يقرأ منشوراتها ويتعرف إليه أهدافها ومبادئها على غير الكثير من أعضائها الذين لم يقرأوا عنها شيئا كما ذكر حمروش فى كتابه عن قصة ثورة يوليو ويقول «قال لى صلاح سالم إنه لم يقرأ منشور الأهداف الستة ولم يناقش هذا الموضوع أو يتعرف إليه إلا بعد نجاح الثورة» المهم تعرف البطل يوسف صديق إليه الضابط وحيد رمضان والذى رشحه للالتحاق بالضباط الأحرار ومن هنا جاءت سعادة يوسف صديق فها هوذا يجد الطريق ويجد السبيل للحلم الذى راوده منذ

سنين فكم فكر فى أن يأخذ كتيبته بمفردها ويغامر بها لكى ينهى هذا العهد الملكى الديكتاتورى وكم حلم بالانضمام لحركة تساعده على تنفيذ هذا الحلم وها هو البطل قد ساعد حركة الضباط الأحرار قبل أن تساعده ولكن كان ذا جزاؤه جزاء سنمار ولم يكذب «نجيب» عندما ذكرها فى مذكراته بأنها حركة الضباط الأشرار وليسوا الأحرار.

ولكن على الرغم من ذلك أدى يوسف صديق دوره وواجباته على أكمل وجه ولم يقصر أبداً ولم يعتن بالأفعال السخيفة ممن هم أحدث منه فى الرتبة العسكرية كعبدالناصر أو أقل منه كعبدالحكيم عامر وإنما كان هدفه واضحًا وطريقه صريحًا عكس معظم ضباط مجلس قيادة الثورة وهذا ما يدلل عليه أن استقالته كانت أول استقالة من المجلس وحين انتشر فساد الضباط وعم لدرجة أن شقيق صلاح سالم وجمال سالم طبع كارت مكتوب عليه شقيق صلاح وجمال سالم ليستخدمه فى المصالح الحكومية لم نجد يوسف يسعى حتى لتعيين أحد أقاربه فى أى منصب ولم تشبهه أى فضيحه جنسية أو مالية كما ظهر بعد ذلك مع معظم ضباط مجلس قيادة الثورة وإنما عاش حراً ومات شريفا.

وبدأ كفاح يوسف صديق مع الضباط الأحرار من أول لحظة

التحق بهم فقد تحول بيته إلى مقر سرى لاجتماعاتهم وشاركته زوجته المناضلة السيدة «علية توفيق» فى الحياة السياسية فها هى ذى تنصحهم بترك عرباتهم العسكرية المعروفة بعيداً عن المنزل بجوار محطة السكة الحديد حتى يظنها من يراها أنها عربات فى انتظار القادمين أو الراحلين فى قطار المحطة والترجل حتى المنزل لعدم لفت الانتباه بسبب كثرة العربات أمام المنزل وها هى ذى تشارك فى طباعة المنشورات وتوزيعها على المحال فى الشوارع وإيداعها صناديق بريد العمارات ومن المواقف الصعبة التى عاشتها علية توفيق مع زوجها والتى تحكيها فى كتابها أنه فى إحدى الليالى وكان موعد لقاء الضباط الأحرار السرى فى بيت يوسف صديق قد اقترب ولم يبق إلا دقائق معدودة فإذا بالقائمقام «رشاد مهنا» يدق جرس الباب ويدخل لزيارة يوسف صديق فى بيته – وكان قد نقل حديثا إلى منطقة العريش – وسرعان ما سلم عليه يوسف صديق وأخذه بعيداً عن مدخل الفيلا فى حين قابلت علية توفيق الضباط الأحرار القادمين بعده مباشرة وأبلغتهم فى هدوء تام بالتزام الصمت وخبأتهم فى غرف الفيلا العديدة حتى انتهاء زيارة القائمقام رشاد مهنا وخروجه من المنزل وهنا تنفست علية توفيق الصعداء وعندما نظر يوسف صديق فى البيت ولم

يجد أى ضابط ظن أنهم تأخروا أو ربما لم يأتوا ولكنها سرع
ما شرحت له ما جرى ووجد الضباط يخرجون عليه من حجرا
الفيلا كالجراد المنتشر فتنفس هو الآخر الصعداء وشكر الله عل
هذه الزوجة الذكية الثائرة المخلصة للوطن وهكذا شاركت المناض
والزوجة زوجها الكفاح وكان جزاؤها أيضا جزاء باقى الشرفاء
فتحكى ابنته من السيدة توحيدة صبرى أنه بعد اعتقال أبيها ج
رجال البوليس - وكان وزير الداخلية وقتها زكريا محيى الدي
- ليقبضوا على أمها التى ليس لها شأن بالسياسة أصلا وخر
المخبر بعد تفتيش البيت ومعه حقيبة بها منشورات مازال ورقه
ساخنًا أى أن الضابط أحضرها من المطبعة إلى البيت مباشر
لسرعة تلفيق القضية ولكن بعد ساعات معدودة خرجت الأم م
مركز الشرطة حيث علمت أنها لم تكن المقصودة بالقضية وإنم
المقصودة هى زوجة يوسف صديق الأخرى «علية توفيق» وسرعا
ما توجه رجال البوليس بنفس الحقيبة إلى بيت السيدة «علية
توفيق» للقبض عليها.

وبعد التحاق يوسف صديق بحركة الضباط الأحرار التقى
بجمال عبد الناصر عدة مرات تبادلا فيها الآراء ووجهات النظر
حتى التقيا يوم ساعة الصفر...

جاءت التعليمات بنقل الكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاة من العريش إلى القاهرة وكان قرار النقل يقضى بأن تنتقل مقدمة الكتيبة أولا بقائدها الثانى وهو يوسف صديق لتقوم بإعداد المكان وتهيئته قبل نزول باقى الكتيبة. فرح يوسف صديق بهذا القرار جدا فهو هكذا يمكنه من حضور الثورة بالقاهرة وبالفعل فى صباح يوم ١٣ يوليو جاء القطار الذى سيحمل مقدمة الكتيبة بقائدها يوسف صديق إلى القاهرة ولكن حدث شىء غريب على غير المتوقع فقد جاءت البوستة إلى الكتيبة بإلغاء قرار النقل وعندما علم يوسف صديق بذلك حزن حزناً شديداً لكنه سرعان ما استخدم ذكاءه وأبلغ الضابط الذى استلم البوستة بألا يريها لقائد الكتيبة ولا.يبلغه بها إلا بعد تحرك القطار بمقدمة الكتيبة وبذلك يضمن السفر إلى القاهرة.

وبالفعل نجحت الحيلة الذكية من البطل يوسف صديق ووصلت مقدمة الكتيبة إلى القاهرة لتعسكر فى منطقة الهايكستب بأطراف مصر الجديدة.

❑❑❑

الفصل الرابع
ما قبل الثورة

زاد الفساد واستشرى فى البلاد حتى وصل إلى حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢م وأعلنت الأحكام العرفية فزاد الاحتقان وزاد كره الناس للملك وأعوانه وتم تعطيل الدستور ومنع الصحف من النشر عن الانتخابات وتم مصادرة العديد من الصحف واعتقال القيادات السياسية. أيضا قام البوليس بمحاصرة البرلمان بعد قرار حل مجلس النواب حتى لا يدخله النواب عنوة وهكذا بلغ كره الملك فى الشارع إلى ذروته وتأهب الشعب للقبول بأى انقلاب على الملك يخلصه منه.

على الجانب الآخر فى الجيش تم اغتيال الضابط عبد القادر طه على يد رجال الملك عقب توزيعه لمنشورات تهاجم الملك وتتهمه بالخيانة ثم تم اعتقال الضابط الوفدى حسن علام أثناء طباعته للمنشورات فـــزاد التـــوتر داخل الجيش وفى اجتماع الجمعية العمومية لنادى الضباط وقفوا حدادًا على روح الشهيد عبد القادر طه ثم أعلنوا رفضهم لتمثيل سلاح الحدود فى النادى

على غير رغبة الملك، فكان الملك أكثر منهم صداماً وتحدياً فحل لنادى وألغى الانتخابات وهدد محمد نجيب رئيس النادى لمنتخب - أيضا على غير رغبة الملك - بالطرد من الجيش والاعتقال فزادت اجتماعات الضباط الأحرار وزاد احتقانهم على الملك وأعوانه وقرروا أخذ خطوات عملية فقرروا الإعداد لانقلاب عسكرى وقاموا بحصر رجالهم وقواتهم فاستشعروا قوتهم وقرروا ميعادا للإنقلاب فى يوم ٣/٢ من أغسطس ١٩٥٢م ويحكى خالد محيى الدين فى مذكراته الآن أتكلم عن هذا الاجتماع الذى حددوا فيه موعد يوم الانقلاب ويقول: «وفى الاجتماع أحضر جمال عبد الناصر يوسف صديق معه». كان يوسف يريد أن يطمئن على وجود قوات كافية وكان لدى ضباط المشاة شكوك فى أن ضباط الفرسان المهتمين بمظهرهم يمكن أن يتحركوا فى عمل ثورى كهذا. وكان يوسف صديق شخصا محترما وقد عمل مدرسا فى الكلية الحربية لمدة طويلة وتتلمذ على يديه العديد من الضباط ولم أكن أعرف حتى ذلك الحين أنه شيوعى وأنه عضو فى (حدتو) - أوضحنا قبل ذلك أن يوسف صديق لم يكن عضوا بحدتو - وأعتقد أن عبدالناصر لم يكن يعرف ذلك فبعد الثورة دهش عبدالناصر عندما عرف أن يوسف صديق شيوعى وانتابته حالة شك عميق فى أن (حدتو) تحتفظ سرا بتنظيم لها فى الجيش.

وعلى موعد الثانى أو الثالث من أغسطس انتهى اجتماع وبدأنا جميعا فى تحرك واسع بين الضباط استعدادا للعمل الذى عشنا من أجله طويلا وعملنا من أجله كثيرا..

ولم نبلغ الضباط بالموعد ولكن طلبنا منهم تحسين علاقاتهم بالجنود وبزملائهم الضباط وتحديد إمكانيات وسبل السيطرة على الوحدات وطلبنا من كل منهم أن يترك أرقام تليفونات وأماكن وجوده حتى يمكن الاتصال به فى أى لحظة.

إنها اللمسات الأخيرة للاستعداد للعمل الحاسم.. أخبر أحد الوزراء محمد نجيب بأن السرايا معها قائمة بأسماء الضباط الذين يحركون الجيش ويثيرون الفتن داخله فأسرع نجيب بإخبار الضباط الأحرار وجاءت معلومات للضباط الأحرار بأن حسين سرى سيتولى منصب وزير الحربية وهو من الشخصيات المعادية لهم واليمامه بمعظم خيوط الجيش يساعده على تصفيتهم واحدًا تلو الآخر وهذان الخبران كانا سبب تقديم يوم الانقلاب إلى ٢٢ يوليو ثم أخره عبدالناصر يومًا آخر للتمكن من التجهيز والإعداد الجيد للضباط ليكون يوم ساعة الصفر ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وتم وضع الخطة وتم مناقشتها فى الاجتماع الأخير للضباط الأحرار.

– ولكنى هنا لن أتعرض لهذه الخطة البشرية التى لم تنفذ وربما لو نفذت فى ميعادها لكانت سببا لنصب المشانق أو الإعدام

يا بالرصاص ولكننى سأتعرض لهذه الخطة الإلهية التى وضعها له بعنايته لينفذها عبده الشجاع «يوسف صديق» دون دراية بها. وأراد عبد الناصر أن يؤمن الثورة فأبلغ الإخوان والشيوعيين بميعاد التحرك لضمان التأييد الشعبى وللتأمين السياسى للحركة بهذا أصبح المسرح جاهزا لبدء العمل...

وقبل أن نبدأ فى أحداث ليلة الثورة لا يفوتنا أن نذكر هذه الشهادة التى سجلتها السيدة علية توفيق عن شجاعة وتضحية وجها البطل يوسف صديق فى كتابها «يوسف صديق وجمال عبدالناصر وأنا» حيث قالت:

«فى تلك الأيام الحاسمة فى تاريخ مصر الحديث وفى النصف الثانى من شهر يوليو عام ١٩٥٢م عاود يوسف نزيف الرئة اليسرى الذى سبق أن تعرض له خلال فترة خدمته بالسودان فى صيف عام ١٩٥٠م. الأمر الذى أجبره حينذاك إلى نقله بالطائرة من السودان إلى القاهرة للعلاج بالمستشفى العسكرى بحلمية الزيتون. كان العلاج يقتضى إلى جانب الأدوية والحقن راحة تامة بالفراش لمدة ثلاثة أسابيع وكان قد عاوده النزيف مرة ثانية فى نفس الرئة فى صيف عام ١٩٥١م ومر بنفس رحلة العلاج، مما ألزمه الفراش كما اعتاد من قبل .فى حين كان موعد قيام الثورة قد

تحدد ليلة ٢٢ /٢٣ يوليو بصفة نهائية. زار جمال عبد الناصر وعبدالحكيم عامر يوسف صديق فى منزله بحلمية الزيتون فى يوم ٢٠ يوليو ليجدا يوسف على هذه الحالة المرضية الحادة أو على حد قول يوسف صديق «ليجداه غارقا فى نزيفه» ولم يكن أمام عبدالناصر إلا أن يعفيه من العمل فى ليلة الثورة خاصة أن باقى كتيبة المدافع ماكينة لم يكن قد وصل من العريش بعد؛ وبالتالى فلن تتمكن من المشاركة فى الثورة فضلا عن أنه يمكن تكليف اليوزباشى عبدالمجيد شديد مساعد يوسف صديق برئاسة مقدمة الكتيبة، حيث إنها قليلة العدد والعدة وواجبها فى خطة الثورة بسيط وهو تدعيم قوات الضباط الأحرار التى ستقوم باقتحام مقر قيادة الجيش.

رفض يوسف صديق بالرغم من حالتة المرضية الحادة أن يفوته الاشتراك فى ذلك اليوم التاريخى الذى طالما انتظره وأقنع جمال بأنه سيؤدى دوره فى الثورة وإذا ساءت حالته فإن المستشفى العسكرى بكوبرى القبة على بعد خطوات من مقر القيادة العامة.»

انتهت شهادة علية توفيق وبقيت شجاعة وتضحية البطل يوسف صديق لهذا الوطن وتقديم دمه وروحه من أجل إعلاء كلمة الوطن عالية مثل علمه ترفرف فى عنان السماء..